اسم الدرس : تفسير سورة العنكبوت (1) | الآيات (1 : 5)

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اليوم بإذن الله نعود إلى مجالس القرآن، وأسأل ربنا أن يجعلنا جميعًا من أهل القرآن، وقبل أن نعود إلى مجالس القرآن علينا أن نستحضر قيمة هذه المجالس في بناء الإنسان والارتقاء به (اقرأ ورتل وارتق)، وأن هذه المجالس مجالس مباركة تحفها الملائكة، وهذه المجالس يذكرها الله سبحانه وتعالى بنفسه فيمن عنده.

فاستحضار قيمة هذه المجالس تجعل الإنسان يُقبل عليها ولا يتكاسل، وتجعل الإنسان يقبل على القرآن ليستقي منه المفاهيم، ويستقي منه العقائد والمبادئ، ويزكي نفسه من كتاب الله سبحانه وتعالى.

وللأسف نجد الكثير منا يتكاسل في بذل الوقت مع القرآن، فنجد أن أقصى درجة يصل إليها أن يحفظ فحسب، لكن القليل منا من يعطي القرآن عمره وجزءًا كبيرًا من وقته، ودائمًا نريد الخلاصة من القرآن.

فمن منا أعطى وقتًا لتدراس سورة كاملة؟ مثل أن يعطي الفرد منا وقتًا كبيرًا لدراسة سورة فاطر مثلًا أو النبأ أو سورة الأنعام، يظل شهرًا مثلًا يترنم بالسورة، ويكثر من حفظها ويصلي بها النوافل ويتدارسها ويقرأ تفسيرها ويتدارسها مع إخوانه؛ فهذه لا بد أن تكون طريقة تفكيرنا مع القرآن.

ومن أهم الطرق لمن يريد أن يتعلم أو يقترب من كتاب الله ويتدراسه ويتدبره على علم، أن يعلم أن هناك ركنان مهمان لفهم القرآن هما:

1- ركن العلم؛ أي: أن يكون عندك علم.
2- ركن المعايشة.

وهذان الركنان مهمان جدًّا في فهم كلام الله سبحانه وتعالى.

فركن العلم: أنت كلما ازددت فهمًا في علوم الشريعة -بل حتى في غير علوم الشريعة- ازددت فهمًا لكتاب الله سبحانه وتعالى؛ لأن العلوم كلها تصب في فهم القرآن، وفهم القرآن يصب أيضًا في زيادة فهم بقية العلوم، لكن **من أخص العلوم: علوم الأثر وعلوم اللغة**.

فالتمكن من هذين العلمين تحديدًا مهم جدًّا،

- ففهم علوم الأثر ضروري؛ لأنه لا بد أن تعرف الكلام الذي ورد عن السلف ولا تتكلم جزافًا بلا فهم ولا علم في القرآن، فلا بد أن تعلم ما قاله السلف في القرآن، وما وضعوا له ضوابط، وإذا كان فهمك للآيات على خلاف فهم السلف فهذا مؤشر خطر.

فلا ينبغي أن تتكلم في القرآن قبل الرجوع إلى كلام السلف، وهناك تفاسير أثرية كثيرة، لكن كيفية التعامل معها تحتاج إلى إتقان لهذه العلوم.

- ولا بد من تعلم علوم اللغة العربية بما فيها النحو والبلاغة وغيرها، لكن من أهم علوم اللغة النحو والبلاغة؛

هذا بالنسبة لركن العلم.

أما ركن المعايشة: هو أن تستحضر واقع نزول القرآن، فنحن اليوم إن شاء الله سنبدأ في مدارسة سورة العنكبوت، فأنت **عليك أن تستحضر هذا الواقع الذي نزل فيه القرآن؛ فقد كان واقعًا حيًّا ومليئًا بالتفاعل والقضايا الهامة**، والبعض منا قد يعيش واقعًا من البرودة والانعزال عن مشاكل الواقع، ولا يحيا قضايا أمته؛ فبالتالي لا يستشعر المعاني، فالمعايشة ضرورية.

والمعايشة حتى تكون فعالة في فهم القرآن هي ركنان أيضًا:

1- معايشة واقع نزول القرآن.

2- أن يكون لك واقع مماثل أو مقارب، أو تتمنى واقعًا مقاربًا لواقع الصحابة، (من مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ تحدثه نَفْسَهُ بالغزو...)، أو تتمنى أن تفعل ما فعله الصحابة، أو تقدم جزءًا مما قدمه الصحابة لنصرة دين الله عز وجل.

وهذان الركنان يفتحان للإنسان آفاقًا كثيرة لفهم كتاب الله سبحانه وتعالى.

نبدأ اليوم مجالس سورة العنكبوت بإذن الله سبحانه وتعالى، وسنقطع فيها أشواطًا حسب تيسير الله لنا وحسب الوقت، وسنتكلم أولًا عن موضعها في القرآن، وبعد ذلك سنتكلم عن الذين أشاروا إلى موضوعها.

الواقع الذي نزلت فيه السورة

وفي البداية، هل سورة العنكبوت مكية أم مدنية؟

- قال الكثير من المفسرين أنها سورة مكية،
- وقال البعض أنها مكية إلا بعض الآيات –خاصة أوائل الآيات–، حيث استثنوها وقالوا أن فيها آيات مدنية؛ لأن هناك ألفاظًا ذُكرت، وهي لا تكون إلا في المدينة؛ مثل: لفظ "النفاق"، ولفظ "الجهاد".

وهذه الألفاظ كمصطلحات شرعية كالنفاق، وكحكم شرعي كالجهاد، لم تنشأ إلا في المدينة، مثل قوله تعالى: {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}[العنكبوت:6]، وقوله: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}[العنكبوت:11]؛ فقالوا أن النفاق ذُكر فيها، ولم يكن هناك نفاق في مكة؛ لأن النفاق هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر لكي يكون ضمن مجموعة المؤمنين المنتصرة، فكيف يكون هناك نفاق في مكة ؟! –وسنشير إلى هذا المعنى عندما نصل إلى الآية التي فيها ذكر النفاق–.

وقد رفض بعض المفسرين ذلك، وقالوا أن كل السورة مكية، ومن الممكن الإجابة على كيفية ورود مثل هذه المصطلحات في مكة.

- بينما حاول بعض المفسرين إيجاد قول وسط؛ وهو أن هذه الآيات –وهي تحديدًا الإحدى عشرة آية الأولى– نزلت في المدينة، لكن تتكلم عن واقع أناس مستضعفين كانوا لا يزالون يعيشون في مكة، وكانوا يعيشون حالة من الاضطهاد والتعذيب، سواءً كان هؤلاء المستضعفون هم الذين رفضوا الهجرة بأنفسهم، أو من لم يستطيعوا الهجرة. وسنتكلم عن هؤلاء إن شاء الله في السورة لاحقًا.

لكن غالب جو السورة مكي، بل وقيل أنها من أواخر ما نزل في مكة، أو هي السورة الأخيرة، أو قبل الأخيرة، وسواء كانت العنكبوت أو المطففين هذه خواتيم مكة.

فلا بد أن تستحضر ما معنى خواتيم مكة، أي بعد ثلاثة عشر عامًا من التعذيب والأذى، ومن دون أي نور يظهر في الأفق، حيث كانوا لا يعلمون ما هو الحل في ذلك الوقت.

والنبي صلى الله عليه وسلم عندما سبقت الهجرة إلى الحبشة، لم تكن الحبشة هي الأرض التي هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضًا حاول النبي الذهاب إلى الطائف، ولم تكن هذه هي الأرض؛ فلم تكن هناك أية بودار نصرة في الأفق، أو تغيّر أو تمكين.

ثم مع طول فترة الاستضعاف تنزل هذه السورة تخاطب واقع الناس في تلك اللحظة؛ فلا بد أن تستحضر واقع الناس في تلك اللحظة.

فبعد اثني عشر عامًا أو ثلاثة عشر عامًا من الابتلاءات والتعذيب والأذى، والأمر يزداد سوءًا وضيقًا؛ حتى في حصار شِعب أبي طالب أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم –سواء من الكفار كعمه أبي طالب الذي كان يدافع عنه، أو من المؤمنين كزوجته خديجة– يموتون.

فالحماية تقل والأذى يزداد، وفرص وجود مدينة أخرى مثل الطائف لم تنجح؛ فهذا الواقع من الممكن أن يجعل بعض الناس يستطيلون الطريق أو يصيبهم اليأس، أو يبدؤون بالتضجر والتساؤل: لماذا يحدث لنا هذا؟ لماذا يتركنا الله سبحانه وتعالى هكذا ولا ينصرنا؟

وتبدأ هذه التساؤلات تحدث داخل الإنسان مع طول فترة الاستضعاف؛ فالقرآن يأتي ليخاطب الناس ويجيب على هذه التساؤلات، حتى لو لم يتفوه بها الإنسان، حتى لو ظلت هذه التساؤلات حبيسة في صدورهم، لكن: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك:14].

وقد كان هناك الكثير من التساؤلات التي تكلم بها الصحابة كما حدث في غزوة أحد، فواقع غزوة أحد كان واقعًا غريبًا؛ بمعنى أن المسلمين انتصروا في بدر، وكان في بدر المسلمون في مواجهة المشركين وحدث النصر، ثم في أُحد كان المسلمون أيضًا في مواجهة المشركين وتمت الهزيمة، وحينها قال الصحابة: لم حدث ذلك؟! {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا}[آل عمران:165].

فأحيانًا تحدث أقدار فيها نوع من المتشابهات عند بعض المؤمنين؛ فيتساءل الإنسان لماذا يحدث هذا؟

أيضًا نزلت سورة العنكبوت لتجيب عن فهم خاطئ لسنن الله سبحانه وتعالى، وعن حسابات خاطئة سواء من قِبل المؤمنين أو من قبل الكفار؛ لذلك بدأت السورة بنوعين من الحسابات الخاطئة هما:

- {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[العنكبوت:2]
- و{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[العنكبوت:4].

نوعان من الحسابات الخاطئة تصححهما السورة، وتجيب وتوضح سنن الله سبحانه وتعالى في معاملة المؤمنين ومعاملة المشركين؛ هذا هو واقع نزول السورة خواتيم مكة.

موضع السورة في المصحف

وبالنسبة لموضع السورة في المصحف: نجد أن السورة تُستفتح بالحروف المقطعة {الم}، -تحدثنا عن الحروف المقطعة في بدايات السور باستفاضة في الدرس الأول من سورة الأعراف-، وكثير من العلماء الذين قالوا بأن ترتيب القرآن جاء توقيفيًّا من الله سبحانه وتعالى، أو من النبي صلى الله عليه وسلم، أو حتى باجتهاد من الصحابة، لكنه بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، استدلوا بأن السور التي بدأت بحروف مقطعة متشابهة جاءت وراء بعضها في المصحف، وهذا دليل أن القرآن لم يُرَتب عشوائيًّا.

فهذا الترتيب معتبر وله دلالة، فأنت تجد مجموعة آل حم، حيث أن بعض العلماء يسمون السور التي تبدأ بـ {حم} مجموعة "آل حم"، و"آل حم" بمعنى عائلة، وبعضهم يقول ليس هناك مانع بأن نسميها "الحواميم" بالجمع، وبعضهم يرفض الجمع أي كلمة حواميم، فنضع آل وبعدها الحروف المقطعة كما هي،

فمثلًا عائلة {الم}: إما أن نسميها "آل الم"، أو "اللواميم"، وكذلك "آل طسم" أو "الطواسيم"؛ فمنهم من منع ومنهم من أجاز.

وسورة العنكبوت من "آل الم"، أو من "اللواميم" ، فلدينا عائلة "آل حم" التي أتت وراء بعضها، وعندنا عائلة "الر" –وتكلمنا عنها في سورة يوسف– أتت وراء بعضها، ولدينا عائلة "الم" التي أتت وراء بعضها.

واعترض البعض؛ لأن اثنتين من عائلة "الم" جاءتا في أول المصحف وهما البقرة وآل عمران، وأربع أتين في الثلث الأخير في المصحف؛ وهن: العنكبوت والروم ولقمان والسجدة، وأنت تقول أن الحروف المقطعة تأتي وراء بعضها.

فهنا وجدوا أن مجموعة "الم" المدنية أتت وراء بعضها؛ فالبقرة وآل عمران سورتان مدنيتان نزلتا في المدينة، و"اللواميم" المكية أتت وراء بعضها، حيث أتت بعد "الطواسيم" التي جاءت مع بعضها: الشعراء والنمل والقصص، وبعدها أتت "اللواميم" الأربعة المكية؛ وهي: العنكبوت والروم ولقمان والسجدة.

فموقع سورة العنكبوت أنها أول سورة في ترتيب المصحف في "اللواميم" المكية، وتقع بعد سورة القصص أو بعد "الطواسيم".

فالشوط الأول ابتداء سورة البقرة إلى سورة التوبة –ما عدا الأنعام والأعراف–، يعتبر أطول شوط مدني في المصحف، ومن بعد التوبة: أي من سورة يونس وحتى سورة السجدة –وهي قبل الأحزاب–، كل هذا الشوط مكي ما عدا سورتي الحج والنور، وبعض الآيات في بعض السور، فهذا شوط مكي طويل.

ومن عادة القرآن –وهذا من الاستقراء الذي قد يكون خاطئًا– أن يذكر مرحلة مكية؛ أي مرحلة استضعاف، ثم تعقبها مرحلة تمكين، ثم مرحلة استضعاف، ثم مرحلة تمكين.

ومراحل الاستضعاف التي ذُكرت في القرآن أطول من مراحل التمكين؛ وكأن هذه إشارة إلى أن هذا هو الغالب الذي سيحدث في هذه الأمة أن مراحل الاستضعاف ستكون أطول، وهناك درس جميل جدًّا للدكتور راغب السرجاني في محاولة استبصار واستخراج حِكم لماذا من سنة الله تعالى أن يكون طول فترة الاستضعاف أكبر من فترة التمكين؛ حيث قال أن هذا في صالح أهل الإيمان.

ولو نظرت في المصحف ستجد أن ثلثي القرآن مكي؛ أي: نزل في مرحلة الاستضعاف، وثلثه تقريبًا مدني، فنجد أن شوط الاستضعاف طويل وينتهي باللواميم وتأتي بعده الأحزاب.

اللواميم المكية تصنع الأئمة

وآخر سورة أتت من "الطواسيم" أو آل طسم هي القصص؛ وهي تتحدث عن الأمل؛ حيث قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}[القصص:5-6]؛ فهذا أمل للتمكين؛ حيث بدأت تظهر كلمة "التمكين".

ووجود التمكين مرتبط بصناعة الأئمة، {ونجعلهم أئمة ... ونمكن} إذًا التمكين يأتي بصناعة الأئمة، ومن يريد أن يسعى لمدافعة القدر بالقدر ويصل إلى مرحلة التمكين عليه أن يصنع الأئمة –سواء في نفسه أو في غيره–.

هذه سورة القصص وهي التي قبل العنكبوت؛ أي: قبل مجموعة "اللواميم" المكية، ونجد أن آخر سورة في مجموعة "اللواميم" المكية وهي سورة السجدة –التي قبل الأحزاب مباشرة– جاء في آخر صفحة منها قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}[السجدة:24].

إذًا؛ من الواضح أن **هذه المجموعة –من العنكبوت وحتى السجدة "اللواميم المكية"– تصنع الأئمة**؛ فمن يتحمل المعاني التي ذكرت في هذه المجموعة من السور، حينها يستطيع مواجهة الأحزاب، ويكون من الذين قال الله عنهم في سورة الأحزاب: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}[الأحزاب:23].

وهذا هو ما يخيف المرء من أن يتحدث في مثل هذه السور؛ أن لا يكون على قدر هذه المعاني، فالإنسان يخاف أن يتكلم في مثل هذه السور، بل وحتى في القرآن كله؛ لأن القرآن ثقيل {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}[المزمل:5]، فمعاني القرآن كلها ثقيلة، وهي تدك الجبال وتحتاج إلى أئمة يتلقون هذه المعاني.فالمرء دائمًا متخوف من الكلام في القرآن، ولكن العذر هو أننا نُبلغ (فرُبّ سامعٍ أوعى من مبلّغ)[1]؛ فأنا أبلغ، وإن شاء الله تكونون أفضل، وتطبقون هذه المعاني.

1 [عن عبدالله بن مسعود:] نَضَّرَ اللهُ امرأً سمِعَ منّا شيئًا فبلَّغَهُ كما سمِعَهُ، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعى من سامِعٍ

من الواضح أن هذه المجموعة فيها معانٍ عظيمة:

- فمعنى المجاهدة الموجودة في العنكبوت.
- ومعنى اليقين في الوعد الموجود في سورة الروم.
- واستحضار الحكمة الموجودة في لقمان.
- والعبادة {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}[السجدة:16] في سورة السجدة.

فهذه المعاني الأربعة وغيرها –المبثوثة في هذه السور– لو استقرت في قلب الإنسان بالرغم من تقلبات الأحداث، سيكون بإذن الله من الأئمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}؛ **فبالصبر والمجاهدة الموجودين في العنكبوت، واليقين الموجود في الروم، مع الحكمة والعبادة الموجودتين في لقمان والسجدة، هكذا تصنع الأئمة.**

وكل القرآن ثقيل، لكننا نتعامل مع القرآن تعاملًا فيه نوع من الترف الذهني؛ فهذه السور سور ثقيلة، والمعاني التي سنمر عليها معانٍ عظيمة، ونزلت في واقع صعب؛ بمعنى أنها نزلت تتكلم مع بعض الصحابة الذين قد يحدث في داخلهم نوع من التضجر أو الاستعجال، أو بدأت تحدث عندهم تساؤلات.

تخيل أن الصحابة الذين هم أفضل الناس، عندما حدث ما حدث من البلاء والضغط بدأت تظهر في داخلهم تساؤلات؛ فهذه المعاني معانٍ عظيمة جدًّا، فما بالنا نحن؟!

الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٦٥٧ • حسن صحيح • أخرجه الترمذي (٢٦٥٧) واللفظ له، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (٤١٥٧) •

موضوع سورة العنكبوت

فهذه نظرة عامة عن سورة العنكبوت وموضعها في المصحف، أما بالنسبة لموضوع السورة أو التفسير الموضوعي:

حقيقة أنا لا أحب الخوض فيه بتفاصيل كثيرة والتركيز عليه بكثرة؛ لأنه -وللأسف- يتعامل بعض الناس مع فكرة موضوع السورة بأنه يريد أن يعرف الموضوع فحسب، وبعدها يترك السورة.

فلو شرح له أحدهم التفسير الموضوعي للسورة، يقول أنا فهمت السورة ويحدث له نوع من الإغلاق النفسي تجاه تفاصيل وآيات السورة، مع أنه من المفترض أن يعايش السورة آية آية، فإذا ما علم موضوع سورة الكهف -مثلًا-، وعن ماذا تتكلم، ثم قلت له: ألا تريد أن تتدارسها، يقول: لا، لقد علمت موضوعها.

لكن القرآن والإيمان ليسا مجرد معلومات تقرؤها وتحصلها وينتهي الأمر، فإذا قلت لك اقرأ القرآن هل يصح أن تقول: أنا قرأته قبل ذلك، فأنا أعلم ذلك، لكن **الإنسان يحتاج إلى معانٍ تُثنّى وتُكرر؛ فالمعاني مثاني**.

وهذا إشكال يحدث أحيانًا مع الإنسان -رغمًا عنه-، فالبعض يعرف مثلًا سورة كذا، فإذا قلت له تدارسها واعطها من وقتك شهرًا -مثلًا- وعش معها وصلِّ بها كثيرًا واقرأها، يقول: لا، أنا عرفت موضوعها.

وفي الأصل هذا الأمر -موضوع السورة- اجتهادي؛ بمعنى أنه من الممكن أن يُفتح لشخص ما لم يُفتح لآخر، وهذا نوع من الاجتهاد لأنه يرى السياق، والسباق واللحاق، وموقعها، وأكثر الكلمات تكرارًا، والمفتتح والختام؛ وهي آليات معينة اجتهد فيها بعض العلماء للوصول إلى موضوع السورة؛ لذلك لا أحب أن أستعجل فيها كثيرًا، أو نفرد لها كلامًا كثيرًا.

لكن الخلاصة: من الواضح أن **سورة العنكبوت بدأت بحسبان خاطئ، وانتهت بمجاهدة دائمة**؛ فبدأت { أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ }، وختمت بقوله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}؛ وهذه هي عادة القرآن أن يبدأ بحالة وينتهي بأخرى.

فبدأت السورة بحالة من التكاسل عن المجاهدة، والتساؤل: لماذا تحدث هذه الأحداث؟، وختمت بالاستمرار والمضي في الطريق {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}.

وهناك كتب تحاول أن تصل إلى هذا، ومن هؤلاء شخص من المعاصرين اسمه "عدنان عبد القادر" له كتاب اسمه: "جنى القلب الهائم" يهتم بمعرفة مواضيع السور، وغيره كثير مثل "معجزة أسماء القرآن".

- ومن المفسرين "المهايمي" -الذي ينقل عنه كثيرًا الإمام القاسمي- قال: أن اسم العنكبوت أصلًا دلالة على جهود أهل الباطل تجاه الآلهة والأصنام، وظنهم أن هذه الأصنام والآلهة ستحميهم من عقاب الله، وأن هذه الآلهة حقيقة هي أشبه ببيت العنكبوت الذي يظن العنكبوت أنه سيحميه من الحشرات والرياح، ثم يفاجأ العنكبوت بأن هذا البيت بيت واهٍ؛ فكذلك آلهة المشركين، وكل جهود أهل الباطل هي في حقيقتها واهية.

- وقال بعضهم: أن السورة هي سورة المجاهدة ومواجهة الفتن؛ لأنه ستقابلك فتن كثيرة في الطريق، ولا بد أن تمضي.

- ومن المتأخرين رشيد الموصلي وله تفسير غير مشهور اسمه: "أولى ما قيل"، يقول: أن السورة نصفين: نصف للفتن التي تعرض لها المسلمون نتيجة ضغوط الأشرار وابتلاءاتهم وتعذيبهم، والنصف الثاني يتحدث عن كيفية المضي في طريقهم وألا يلتفتوا حتى ولو أدى الأمر إلى الهجرة.

وفعلًا هذه السورة، وكثير من السور المكية كانت تعمل على تهيئة المسلمين للهجرة؛ لأن الهجرة أمر عظيم خاصة بالنسبة للعربي الذي كان يرتبط بأرضه وقبيلته؛ فأن يترك أرضه وسماءه وأهله وقبيلته وأولاده وزوجته -ولا سيما لو لم يوافقوه على الإيمان- وماله ويهاجر؛ فهذا أمر عظيم؛ فكان لا بد من تهيئة.

فكانت سورة العنكبوت -كغيرها من السور مثل سورة الكهف- تهيئة للمسلمين للهجرة، وكانت في هذه السور آيات وإشارات، مثل سورة النحل والزمر؛ حيث كانت فيهما إشارات للهجرة إلى الحبشة، لكن سورة العنكبوت كانت تهيئة للهجرة إلى المدينة؛ لأنها كانت في أواخر العهد المكي.

فتجد فيها معانٍ عظيمة تركز على معاني الأمن والرزق، وأن الأمن والرزق بيد الله؛ وهذا أكثر شيء يخافه الإنسان طول فترة الاستضعاف أو أن يترك أرضه، ويفكر إلى أين سيذهب بعد أن يترك أرضه، وفي الرزق بعد أن كان له عمل في بلده فماذا سيفعل بعد الهجرة؛ فتجد في ختام السورة تركيزًا على هذا المعنى "مسألة الأمن والرزق".

وهذه كانت نظرة عامة على موضع سورة العنكبوت وترتيبها في المصحف، وبدايتها بـ"الم" وختامها بالمجاهدة، والموضوعات الثانوية في السورة.

ونبدأ الآن بتفسير الآيات أو الوقفات التحليلية –سنتناول أول ثلاث أو أربع آيات–:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

الحروف المقطعة

وقد تحدثنا بالتفصيل في سورة الأعراف عن شرح الحروف المقطعة –لمن أراد الرجوع إليها–، وهل هي ذات دلالة أو إشارة، وهل تحمل معنىً معينًا كأن تشير إلى أسماء الله، أو إلى معانٍ مبثوثة في السورة، أم لها إشارات معينة على إعجاز القرآن، أو نوع من التحدي.

- ومن أخذوا بهذا القول قالوا بأن غالب السور التي بدأت بالحروف المقطعة لا بد أن يعقبها كلام عن القرآن، أو نجد داخل السورة إشارة إلى القرآن،
  كما في سورة العنكبوت هنا الآية التي تتحدث عن القرآن هي قوله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[العنكبوت:48]، لأنهم قالوا أن الحروف المقطعة هي نوع من التحدي.
- وبعضهم رفض هذا المعنى، وقال أن الحروف المقطعة تشير إلى بدايات أو بعض حروف فيها من أسماء الله سبحانه وتعالى،
- وبعضهم قال أنها قَسم،

والخلاف بالتفصيل ذكرناه في بداية سورة الأعراف.

البداية اجابة تساؤل

وفي أغلب السور التي تبدأ بالحروف المقطعة يأتي بعدها حديث عن القرآن، مثل: تنزيلٌ من الله العزيز الحكيم، مقدمة عن القرآن، لكن بدأت سورة العنكبوت بعد الحروف المقطعة مباشرة بسؤال استفهامي استنكاري: { أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ }.

أريدك أن تتخيل هذه البداية التي فيها نوع من المفاجأة، فهناك سور تجد فيها بعد "بسم الله الرحمن الرحيم" مباشرة –مثلًا– قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}[محمد:1]، هناك سور من غير مقدمات، وهناك سور من دون "بسم الله الرحمن الرحيم" كما في سورة التوبة، مباشرة {بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}[التوبة:1]؛ فهناك سور يبدأ الكلام فيها في موضوع السورة مباشرة؛ وهذا في المواضيع الهامة.

فمن أول السورة: بسم الله الرحمن الرحيم{ الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ } تخيل المشهد في مكة: بعد اثني عشر عامًا من الأذى والعذاب، وحصار شِعب أبي طالب –حيث كانوا خارجين للتو من الحصار–، والنبي كان يريد الهجرة إلى الطائف، ثم لم تكن الطائف، وأبو طالب يموت، والسيدة خديجة تموت، والأذى يزداد، ثم تنزل سورة!

فالبعض كان يتساءل لماذا يُسلّط علينا الكفار؟ هل الحق معهم؟ هم معهم القوة والمال، فهل القوة والمال ليسا من معايير الحق؟ وهل سيسلطون علينا؟ وما هو الأجر إن تحملنا كل هذا؟ ومتى سيأتي نصر الله؟

وكل هذه التساؤلات طبيعية في قلب أي إنسان عندما يمر بمثل هذه الأحداث، فتخيل هذا الوضع.

وأتى سيدنا خباب –وهذا نموذج حدث– وكان ظهره مليئًا بالحفر من شدة التعذيب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فبالرغم من هذا الأذى وصبره عليه، إلا أنه ذهب إلى سيدنا محمد، وقال: "يا رسول الله، ألا تدعوا لنا؟، ألا تستنصر لنا؟"، فالنبي يجيب إجابة غريبة؛ لأن سيدنا خباب لم يكن كأي شخص، وإنما كان يعدّ لأمانة عظيمة!.

فمن الممكن أن تجيب شخصًا ما بإجابة، لا تجيب بها آخر، وسيدنا خباب كان يُعد لأمانة عظيمة، فكان من الممكن أن يقول له النبي: "اصبر وتحمل"، لكن هؤلاء يُعدّون لحمل الأمانة في العالم، فلا بد لهم من معاملة مختلفة.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (والله ليتمن الله هذا الأمر ...)[2] والحديث معروف، فذكّره بصبر السابقين.

فتخيل هذا المشهد!، ثم تنزل سورة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث ينزل سيدنا جبريل، والنبي صلى الله عليه وسلم يدخل في مشهد نزول الوحي، ويتصبب منه العرق، ثم يقرأ عليهم هذه السورة، والصحابة كانوا دائمًا يفرحون بنزول السور؛ {لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}[محمد:20].

فالنبي يقرأ عليهم السورة: بسم الله الرحمن الرحيم {الم}، والصحابة عندها كانوا متخيلين أن يقول لهم النبي: "أنتم صبرتم كثيرًا، وتحملتم كثيرًا..."، لكن الوحي يأتي بكلام غريب؛ فيقول الحق تبارك وتعالى: {الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾}.

تخيل المشهد! أنت منذ فترة طويلة تمر بأذى وابتلاءات، وتدور في داخلك تساؤلات، وهناك نوع من الضجر، فعلى حسب قوة إيمانك، والمهمة التي تُعدّ لها، وعلى حسب المتكلم وتقييمه للمرحلة التي أنت فيها تختلف لغة الخطاب.

فمن الممكن أن يخاطب فرد بآية، وفرد آخر في نفس الموقف يخاطب بآية أخرى، فهنا هؤلاء يُعدون ليكونوا أئمة، كما قلنا السورة لصناعة الأئمة.

والسورة التي قبل سورة العنكبوت **"سورة القصص" تتحدث عن صراع الأئمة**، حيث ذُكرت فيها كلمة "الأئمة" مع الباطل، وكلمة "الأئمة" مع الحق، فالأئمة ذُكرت مع فرعون، وأيضًا ذكرت مع سيدنا

2 [عن خباب بن الأرت:] شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتّى يَسِيرَ الرّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلّا اللَّهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٩٤٣ • [صحيح]

موسى، فسورة القصص بدأت بأن الصراع صراع بين الأئمة: أئمة الحق، وأئمة الباطل، حيث قال تعالى:{نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ}[القصص:3]، ولم يقل الله سبحانه وتعالى -مثلًا-: "بني إسرائيل والمشركين"، لا، وإنما الأئمة.

فهنا -في العنكبوت- الخطاب مفاجئ، ومن الممكن أن يكون الفرد في هذا التوقيت في حاجة إلى خطاب آخر، فيُقال له: "هل أنت معتقد أن كلمة الإيمان كافية؟!".

الاعتقاد بشيء يخالف الواقع يحدث صدمة

{أحسب الناس}، والحسبان غالبًا يأتي في القرآن مع الظن الخاطئ، وقال بعضهم: "أحسب" من الحساب لشيء، أن يحسب الفرد شيئًا فيعقد عليه، بمعنى أن شخصًا ما لديه ظن معين ويعقد عليه، ويغلق عقله عليه، ويعتقد أن هذا هو الصحيح، ثم تحدث أحداثًا مخالفة لهذا الاعتقاد؛ فيحدث عنده نوع من التضارب بين اعتقاداته التي هي بالأصل خاطئة، وبين الواقع، وحينها تنشأ لديه تساؤلات كثيرة.

وهذا ما يحدث لك عندما تفهم أمورًا من الدين بشكل خاطئ، وتعتقد بذلك، ويستقر في عقلك، وترفض إصلاحه، ثم تحدث أحداثًا مخالفة لاعتقادك.

فأنت -مثلًا- تظن أنه من حِفظِ الله للدين -وهذا أمر منتهٍ- {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر:9]، والله سبحانه وتعالى سيتم هذا الأمر، فمن ضمن هذه الوعود -باعتقادك- أن الكعبة -مثلًا- لن تهدم، ثم تُفاجأ بأن حدثًا ما مثلًا -حفظ الله الكعبة- يحدث وتهدم!

فحينها يبدأ في داخلك حدوث نوع من الحسابات الخاطئة والتضارب بين معتقداتك الخاطئة وبين الواقع،

- فإما أن تكون لديك القدرة النفسية على بناء معتقداتك بطريقة صحيحة من نفس المصدر "الوحي"،

- و إما أنه من الممكن أن يحدث عند بعض الناس نوع من الزلزلة؛ فيكفر بالمصدر كله –وهو الوحي–، ويقول: دعنا نكون مع الواقع ومع القوي، فيبدأ هذا الفرد بالسير مع متغيرات الواقع، ويغير مبادئه حسب القوى، وليس حسب المبادئ.

الإيمان ليس مجرد قول

فمن الممكن أن يظن الإنسان أنه يريد أن يدفع البلاء عنه، فيقول كلمة الإيمان فحسب؛ وهذا ما فعله المنافقون في المدينة :{أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}، بمعنى: هل تظنون أن كلمة الإيمان قول فحسب؟!؛ أن تتكلم فحسب؟! فالقول يحتاج إلى عمل يصدق هذا الكلام –وسنأتي على معنى الصادقين والكاذبين فيما بعد–.

فهناك أناس يعتقدون خطأً أن الكلام بالإيمان وحده كافٍ؛ لا، فهذا الكلام الذي تتكلم به وتدعيه لن تترك عليه، بل ستحاسب عليه، وستحدث أقدار معينة تبين إن كنت صادقًا أم كاذبًا.

{أحسب الناس أن يتركوا}، أي: أنهم لن يتركوا، فمن الذي لن يتركهم؟، و"يتركوا": فعل مبني لغير الفاعل؛ وهذه كلمة أضبط من كلمة مبني للمجهول.

{أحسب الناس أن يتركوا}: مبني لغير الفاعل، والذي يأتي بعد المبني لغير الفاعل، اسمه: نائب الفاعل، وليس الفاعل، فمن هو الفاعل هنا؟ من الذي لن يتركهم؟

قال الكثير من المفسرين: أن الفاعل هنا هو الله سبحانه وتعالى، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى لن يترك الناس هكذا بمجرد أن يتكلموا بالإيمان يصرف عنهم الابتلاءات والفتن، لكنه سيقدّر أقدارًا إما كأقدار أو كتكاليف.

لذلك فالذي اختار هذا القول: أن الذي لن يتركهم هو الله {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}، قال أن الله لن يتركهم حتى يبتليهم بالفتن، بماذا يبتليهم الله؟ بأقدار تحدث كتسليط الكفار عليهم، وبتكاليف كالهجرة والجهاد.

لذلك بعض السلف قال في قوله تعالى: { مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ }[آل عمران:179] وهو مروي عن قتادة؛ أي: بالهجرة والجهاد، فقال: كيف تحدث المفاصلة والتمييز بين الخبيث والطيب؟

ستكون بأمرين: الهجرة والجهاد، والهجرة والجهاد تكاليف؛ فهناك شرع، وهناك أقدار تحدث،

فكلمة "لا يفتنون" أي:

- إما يفتنون بالأقدار، أي بتسليط الكفار عليهم؛ وهذه فتنة،
- أو بالتكاليف، وقالوا: المقصد بالفتنة –الابتلاء بالتكليف– هنا: الهجرة تحديدًا؛ لأن السورة أصلًا تمهد لذلك.

لكن ابن عاشور خالف وغلّط كثير من المفسرين –وأعتقد أنه تكلف هنا في ظني–، وحتى الموصلي أيضًا في "أولى ما قيل" خالف، قال ابن عاشور: أن الله هنا يعرّفهم بأن هناك سنة من سنن الله في العادات والتقاليد في المجتمعات، أنه لو كان هناك مجتمع يفعل أمرًا ما، والمجتمع كله متفق على هذا الأمر، ثم تخرج ثلة تخالف المجتمع، فلن يتركهم هذا المجتمع –وهذا المعنى بذاته صحيح–.

فجملة {أحسب الناس أن يتركوا}: أي من أقوامهم؛ إذًا؛ من المقصود بنائب الفاعل هنا؟ أعداء الدين، ففاعل فعل "يتركوا" هنا، أي: لن تتركك أقوامكم.

فالله سبحانه وتعالى يقول بأن هذا طبيعي؛ أن أي أحد يريد التغيير سيُواجَه بنوع من المصادمة، فلم أنتم متعجبون؟! لذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أومخرجي هم؟)[3]، قيل له: "ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي"؛ فهذا هو الطبيعي، وأي محاولة تغيير أو محاولة إصلاح –حتى على المستوى

3 قالَ ورَقَةُ: يا ابْنَ أخِي، ماذا تَرى؟ فأخْبَرَهُ النبيُّ ﷺ خَبَرَ ما رَأى، فَقالَ ورَقَةُ: هذا النّامُوسُ الذي أُنْزِلَ على مُوسى، لَيْتَنِي فِيها جَذَعًا، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا، ذَكَرَ حَرْفًا، قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قالَ ورَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بما جِئْتَ به إلّا أُوذِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً، حتّى حَزِنَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٥٣ • [صحيح]

الدنيوي- تقابل بنوع من الممانعة؛ لذلك قال تعالى: { أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النمل:56]؛ فكأن هذه سنة.

وكثير من المتأخرين بدؤوا يفسرون بما يسمى "التفسير السّنَني" الذي يهتم باستخراج سنن الله، خاصة محمد عبده ورشيد رضا، والدكتور محمد عمارة الذي حاول أن يجمع ذلك، وغيره من المتأخرين، وحقيقة من الذين أبدعوا في هذا الأمر من السابقين: شيخ الإسلام.

فلا بد من استخراج سنن الله في المعاملة؛ لأن عدم فهم الإنسان للسنن يجعله يسيء الظن بالله، وعدم فهم سنن الله في المعاملة من الممكن أن يجعل الإنسان يتساءل لماذا يحدث هذا؟ {قلتم أنى هذا}.

{أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا}، فالإيمان ليس مجرد قول فحسب، فكلام الإيمان لا بد أن تعقبه فتنة.

ما هي الفتنة؟

{أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}

فما معنى "لا يفتنون"؟ لأن الآية التي بعدها مباشرة: {ولقد فتنا الذين من قبلكم}، فكأن الله يقول لهم: هل أنتم معتقدون أنكم لن تفتنوا، إذا كان كل من قبلكم فُتنوا؟!

فما هو معنى كلمة "الفتنة"؟

هناك كثير من أهل اللغة، -وهناك الكثير من الكتب التي تهتم بذلك- حاولوا أن يعرفوا أصل المعنى اللغوي للكلمة؛

- حيث قال البعض أن أصلها هو: الوضع في النار؛ بمعنى أن الذهب إذا وضع في النار تسقط منه الشوائب والأشياء المحيطة بالذهب؛ التي هي ليست بذهب حقيقي، ويبقى الذهب الأصلي؛ فهنا نقول: "فُتِن الذهب"؛ فالشيء الذي سقط من الذهب وتغير؛ هذا هو المفتون من الذهب، ويخرج الذهب نقيًّا لم يفتن؛ أي: لم يُحرق ولم يتغير.

لذلك قال بعضهم –ذكر في المعجم الاشتقاقي–: كل ما غيرته النار فهو مفتون؛ بمعنى أنه إذا دخل شيء في النار، فالذي يحرق ويتغير ويسقط ويكون كالرماد؛ فهذا هو المفتون.

واللغة دائمًا تربط الشيء المعنوي بالشيء الحسي؛ فالذهب يدخل في النار وتسقط منه الشوائب، فالذي سقط يسمى "مفتون"، والذي خرج ولم يسقط؛ فهذا هو الذي لم تصبه الفتنة، ولم تصبه النار، وهذا هو الذي يحدث للمؤمن، أنه يدخل في فرن الابتلاءات.

فمجموعة المؤمنين الذين يدخلون في فرن الابتلاءات يسقط منها أناس، فهؤلاء هم من فُتنوا وتغيروا، ويخرج منها الثلة الثابتة، فهؤلاء هم الأئمة فعلينا أن ندعو دائمًا: "اللهم استعملنا ولا تستبدلنا"، فهل أنت معتقد أنك لن تحاط بنار الابتلاءات؟! كلا، سوف تفتن.

لذلك فإن الذين حاولوا الوصول إلى الجذر اللغوي للكلمة، قال بعضهم أن الفتنة هي: العرض على النار؛ لأنها جاءت في القرآن صريحة في قوله تعالى: { يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ }[الذاريات:13].

- وبعضهم قال: من أصلها ومعانيها: الذوبان والتحول، وهذا ما قاله الدكتور حسن جبل في كتابه؛ حيث قال أن معنى الفتنة: الذوبان والتحول؛ فالمكون الأساسي والرئيسي داخل الشيء يذوب ويتحول.

وللأسف هذا هو معنى الفتنة: بمعنى أن المكون الأساسي لإيمانك يذوب، وتبدأ تتغير وتتحول؛ لذلك كان بعض الصحابة يطلق كلمة الفتنة أحيانًا على تغيرات أصابت آراء بعض الناس، كمن بدأ يتراجع عن بعض الآراء المعينة وهي حق.

لذلك يروى عن حذيفة قوله :"الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حرامًا"، وليس ذلك على دليل شرعي؛ لأنه لو كان على دليل شرعي يسمى "اجتهادًا" مقابل اجتهاد آخر.

لكنه يقول: "الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حرامًا" لكن ليس عن اجتهاد شرعي، بل نتيجة ضغط ظروف معينة؛ فهذه التغيرات المبنية على ذوبان المعنى الرئيسي بداخلك وتحوله هي التي تسمى الفتنة.

- وقال بعضهم مثل المصطفوي في كتاب "التحقيق"؛ وهو كتاب يبحث في المفردات: أن الفتنة أصلها: الخلل والاضطراب، فعندما تسير في طريق معين ويحدث خلل واضطراب، هذا هو الفتنة.

- وقال غيرهم كالفراهي وهو متأخر: الفتنة هي ما يعرض على عقلك ونفسك من لذة وألم، فهو يريد أن يقول أن الفتنة ليس شرطًا لها أن تكون بالضراء {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}[الأنبياء:35]، بل هنا يجمع بين الاثنين؛ فهو قال: سواء اللذة أو الألم، واختار هذين المعنيين تحديدًا، وقال: هذه هي الفتنة التي يتعرض لها عقلك ونفسك، فإن خرجت منها صابرًا شاكرًا؛ فأنت لم تفتن.

المعنى الإجمالي لما بدأت به السورة

إذًا؛ فالمعنى الذي بدأت به السورة:

إياك أن تعتقد أن مجرد قول الإيمان يصرف عنك الابتلاءات والفتن، بل لا بد من ذلك، بل و(أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[4]

فمن الممكن أن يخاف الفرد، وقد قال النبي: (يبتلى المرء على قدر دينه)[5]، وقال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}[الطلاق:7]؛ لذلك يعطيك الله قدرات للتخلص من هذه الفتنة وهذا البلاء، لكن الإنسان هو الذي يتخلى.

فالسورة هنا بدأت بسؤال: {أحسب الناس} استنكار {أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون} فهي على المعنيين:

- أنك لن تُترك من الأقدار والتكاليف،
- و لن تُترك من المجتمع.

4 [عن فاطمة بنت اليمان:] أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونَهم
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٩٩٦ • صحيح

5 [عن سعد بن أبي وقاص:] أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسبِ وفي روايةٍ: قدْرِ) دِينِه، فإن كان دِينُه صلبًا اشتدَّ بلاؤُه، وإن كان في دِينِه رِقَّةٌ، ابتُلِيَ على حسبِ دِينِه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَه يمشي على الأرضِ ما عليه خطيئةٌ
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ١٤٣ • إسناده جيد • أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وأحمد (١٤٩٤)، والدارمي (٢٧٨٣) باختلاف يسير

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

الصدق هو الثبات عند الفتن

ومن الممكن أن يتعجب فرد من هذا؛ لذلك يقول الله لهم أن هذه هي سنة الله في كل من سبق: {ولقد فتنا الذين من قبلهم}؛ فلا بد أن يفهم الناس أن هذه الفتنة، أوهذا البلاء هما سنة الله في السابقين.

كما في آية سورة آل عمران التي يقول فيها الحق تبارك وتعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}[آل عمران:146] وفي بعض القراءات: {وكأين من نبي قُتل معه ربيون كثير}، فبعدما قُتل النبي هم استمروا على أحد المعاني في هذه القراءة.

{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتل مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا}، وكأن هذه الآية بهذه القراءة، وبهذا المعنى تحديدًا، بهذا التوجيه تخاطب هؤلاء الذين تركوا سلاحهم عندما سمعوا إشاعة موت النبي صلى الله عليه وسلم: فلماذا تركتم القتال؟ فهناك من كان يجاهد مع الأنبياء، ثم قُتل النبي حقيقة وليس إشاعة، وأكملوا سيرهم.

{وكأين من نبي قُتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا}

- فإما: فما وهنوا لقتل نبيهم،
- أو: فما وهنوا لقتل إخوانهم واستمروا في القتال {وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين}.

وكذلك هذه الآية: {ولقد فتنا الذين من قبلهم}،

ثم تأتي الحكمة من هذه الفتنة: الحكمة من الدخول في فرن الابتلاءات {فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين}.

والمقصود بالصدق –وهو المعنى المشهور–: أنه إذا قال الإنسان أنا آمنت وهو في داخله حقيقة مؤمن، فهو صادق، لكن إذا قال آمنت وهو في الحقيقة من الداخل منافق، فهذا كاذب، وهذا هو المعنى

الأشهر للآية، بمعنى أن هناك أناسًا يتكلمون بكلام الإيمان، لكنهم يخفون في داخلهم ويبطنون الكفر –والعياذ بالله–؛ وهذا هو النفاق.

وهناك من قال لا، فهذه الآية مكية، ونحن لن نختار القول بأن الآية مدنية، وهذا المعنى الذي ذكرته يصلح مع نفاق المدينة؛ إذًا فما معنى الصدق والكذب هنا؟

قالوا: **الصدق بمعنى مطابقة الأفعال للأقوال: أن يصدق عملك قولك**؛ فمثلًا أنت تريد الزواج، وتأتي مرحلة العقد والوعود وقمة الرومانسية، فبعد الزواج يظهر الصادق من الكاذب، والصادق هو الذي يُصدّق عمله قوله؛ لذلك فإن أكثر المشاكل الزوجية تحدث في العام الأول من الزواج؛ لأنه كان قولًا فحسب.

{فليعلمن الله الذين صدقوا} قالوا: أن الصادق والكاذب هنا ليس المقصود بها صدقه أوكذبه عندما قال ابتداءً: آمنت، فهو لما قالها لم يكن كاذبًا، وكان معتقدًا أنه آمن فعلًا، لكن عندما حدثت الابتلاءات لم يتوقع أن هذه هي تبعات الإيمان، فتخلى عن الإيمان عندما فوجئ بتبعات هذا الإيمان فأصبح كاذبًا، أي أنه **عندما قالها في أول مرة كان صادقًا، ثم أصبح كاذبًا حينما لم يصدق عمله قوله الذي قاله.**

لذلك قال تعالى: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}[الأحزاب:23]، بمعنى أنه عندما أتى البلاء كان صادقًا فيما قاله في البداية؛ لذلك عندما قال أنس بن النضر –وهذه الآية تصدق عليه في سورة الأحزاب–: "لَإِن أشهدني الله مع رسول الله مشهدًا آخر ليرين الله ما أصنع"[6] وكان صادقًا فيما قال؛ وهناك أناس فروا.

6 [عن أنس بن مالك:] غابَ عَمّي أَنَسُ بنُ النَّضْرِ عن قِتالِ بَدْرٍ، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ غِبْتُ عن أوَّلِ قِتالٍ قاتَلْتَ المُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللَّهُ أشْهَدَنِي قِتالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ ما أصْنَعُ، فَلَمّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، قالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أعْتَذِرُ إلَيْكَ ممّا صَنَعَ هَؤُلاءِ - يَعْنِي أصْحابَهُ - وأبْرَأُ إلَيْكَ ممّا صَنَعَ هَؤُلاءِ، - يَعْنِي المُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ، فاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بنُ مُعاذٍ، فَقالَ: يا سَعْدُ بنَ مُعاذٍ، الجَنَّةَ ورَبِّ النَّضْرِ إنِّي أجِدُ رِيحَها مِن دُونِ أُحُدٍ، قالَ سَعْدٌ: فَما اسْتَطَعْتُ يا رَسولَ اللَّهِ ما صَنَعَ، قالَ أنَسٌ: فَوَجَدْنا به بضْعًا وثَمانِينَ ضَرْبَةً بالسَّيْفِ أوْ طَعْنَةً بزُمْحٍ، أوْ رَمْيَةً بسَهْمٍ ووَجَدْناهُ قدْ قُتِلَ وقدْ مَثَّلَ به المُشْرِكُونَ، فَما عَرَفَهُ أحَدٌ إلّا أُخْتُهُ ببَنانِهِ قالَ أنَسٌ: كُنّا نُرى أوْ نَظُنُّ أنَّ هذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فيه وفي أشْباهِهِ: {مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عليه} [الأحزاب: ٢٣] إلى آخِرِ الآيَةِ وقالَ إنَّ أُخْتَهُ وهي تُسَمّى الرُّبَيِّعَ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ امْرَأةٍ، فأمَرَ رَسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالقِصاصِ، فَقالَ أنَسٌ: يا رَسولَ اللَّهِ والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُها، فَرَضُوا بالأرْشِ، وتَرَكُوا القِصاصَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ مِن عِبادِ اللَّهِ مَن لو أقْسَمَ على اللَّهِ لَأبَرَّهُ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٨٠٥ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)

لذلك يستدل بهذا المعنى على أن الصدق والكذب هنا ليس معناهما الصدق والكذب باللسان، بل معناهما الثبات أو الهروب، وهناك بيت شعر ذكره ابن عطية من قصيدة شهيرة لزهير يمدح فيها أحد الناس واسمه هرم بن سنان حيث يقول:

ليث بعثَّر يصطاد الرجال إذا ما كذّب الليث عن أقرانه صدقا

في الشطر الأول: شبه الممدوح بأسد في مكان اسمه عثّر يصطاد الرجال، وفي الشطر الثاني: يقول أنه إذا دخل معركة، فالأسد يفر، وهو لا يفر، وسمى الشاعر ثبات هذا الرجل صدقًا؛ أي أنه كان صادقًا، وهذا هو الشاهد.

إذًا؛ ثباتك عند الفتنة معناه أنك كنت صادقًا في كلامك، لكن عندما قلت هذا الكلام، أنت لم تكن كاذبًا {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ}[آل عمران:143]، فلما كان يتمنى الموت ويدعو الله أن يرزقه الشهادة كان صادقًا في ذلك الوقت، لكنه لم يكن متخيلًا تبعات الكلام.

وأكبر إشكال هو أن يحدث تلاقي بين الأماني والواقع، فتحدث فجوة ويصطدم الإنسان، والصادق هو من يستمر على اختياره؛ أنا اخترت الإيمان، سأكمل عليه.

إذًا {فليعلمن الله الذين صدقوا}؛ **أي: ثبتوا، ثبتوا على ماذا؟ ثبتوا على الفتنة.**

{ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا}

أي: فليعلمن الله الذين ثبتوا بعد فتنتهم، وليعلمن الذين ارتدوا على أدبارهم بعد الفتنة؛ فهذا هو المعنى الثاني للصدق والكذب على اعتبار أن الآية في مكة.

أما على معنى أن النفاق المقصود به هو نفاق المدينة؛ فمعنى الآية: فليعلمن الله الذين صدقوا حين قولهم: آمنا، وليعلمن الكاذبين حين قولهم: آمنا.

القراءة الشاذة للآية الثالثة

{فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} والقراءات المتواترة كلها كذلك، وهناك قراءة شاذة –لا نقرأ بها–، والقراءة الشاذة تصلح للتفسير، بينما هناك خلاف إن كانت تصلح كحكم فقهي أم لا، لكن من الممكن أن تساعدنا في الفهم والمعنى، وهناك كتب تؤلف في توجيه معاني القراءات الشاذة، {فليُعلِمن} بينما في القراءة المتواترة {فليَعلَمن الله}.

{فليُعلِمن الله الذين صدقوا وليُعلِمن الكاذبين}، وبعضهم قرأ: {فليَعلَمن الله الذين صدقوا وليُعلِمن الكاذبين} فإما في المرتين تكون "يُعلِمن"، أو في المرة الثانية فحسب، والأولى مروية عن علي بن أبي طالب، والثانية مروية عن الزهري.

{فليُعلِمن الله الذين صدقوا} **أي: يظهرهم، بمعنى أن الله سيُعرّف الناس قيمتهم، ويفضح الآخرين** – اللهم استرنا–.

أو {ليُعلِمن الذين صدقوا} لو كان "الذين صدقوا" هو المفعول به الأول؛ **أي: ليُعلِمنّهم ثوابهم يوم القيامة**؛ بمعنى أن هؤلاء لهم ثواب مخصوص، أو يثبتهم في الدنيا، وقد ذكر ابن عطية ثلاثة معانٍ في توجيه هذه القراءة لمن أراد الرجوع.

ما السيئات المقصودة هنا؟

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون} هذا هو الحسبان الثاني، فما علاقة هذه الآية بما قبلها؟

حتى نعلم علاقة هذه الآية بما قبلها، لنحاول أولًا معرفة معنى {الذين يعملون السيئات}.

بدايةً؛ قال تعالى في الآية السابقة: {فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين}؛ والله يعلم كل شيء، فكيف يقال "فليعلمن الله"؟ المقصود هنا هو علم مُشاهد يترتب عليه الثواب والعقاب.

فالله يعلم ما سيكون، لكن لو أن الله حاسب الإنسان على ما سيكون دونما حدث، فمن الممكن أن يقول الإنسان: يارب أنت ظلمتني، فيخرج هذا للواقع.

فالمقصود بالعلم هنا: علم معاينة يترتب عليه ثواب وعقاب، كما في قصة الغلام الذي قتله الخضر؛ حيث أن الله كان يعلم أنه لو بقي كان سيرهقهما طغيانًا وكفرًا، لكنه لم يحاسب الغلام على هذا.

ولا أريد أن أدخل فيها؛ لأن غالب كتب التفسير –التي مناهجها ليست على منهج أهل السنة كالمعتزلة وغيرهم– تؤولها تأويلات خارجة عن ذلك، لكن ببساطة هو علم يترتب عليه الثواب والعقاب، لكن الله سبحانه وتعالى عليم بكل شيء.

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون} فما معنى: "يعملون السيئات"؟

هناك قاعدة مهمة جدًّا أريد أن نخرج بها اليوم –وسنحاول في كل مرة أن نتناول قاعدة تفيدنا في فهم كتاب الله سبحانه وتعالى–، فأحيانًا يأتي في القرآن لفظ من الممكن أن نسميه مجازًا "لفظًا مجملًا"؛ بمعنى: أن اللفظ المجمل يدخل فيه مفردات كثيرة.

فمثلًا كلمة "الحسنة": من الممكن أن تكون الحسنة صلاة، أو الإيمان، أو شيئًا فيه حسن؛ لذلك فإن العلماء قد اختلفوا في تفسير قوله تعالى: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً}[البقرة:201]؛

فهذه كلمة عامة، وهذا هو المجمل وتحته مفردات كثيرة، ومثلًا "التقوى": كلمة كبيرة معناها: ترك المعصية، أو الإيمان.

فأحيانًا اللفظ يصلح أن يكون عامًا ويصلح أن يكون خاصًّا، وأحيانًا المفسر يخصص المعنى العام بالسياق، وهذا يحتاج إلى جهد وخبرة ويقظة من المفسر.

فمثلًا قوله: "اتقوا الله"؛ هذه عامة، فيقول بأن معناها في الحجرات: اتقوا الله في إخوانكم، فهو أضاف هذا القيد من السياق؛ لأن هناك آية في الحجرات: {وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا}؛ فيخصص المعنى.

مثلًا الإمام الطبري، وهو من أفضل مَن أبدعوا في ذلك، ومن بعده الإمام ابن عطية؛ حيث أبدعا في التقاط المقصد من اللفظ المجمل.

فمثلًا كنموذج: قوله تعالى في سورة النحل: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ}[النحل:45]؛ فالإمام الطبري عندما فسر قوله: "مكروا السيئات" -ولفظ السيئات هنا عام- أرجعه إلى ما قبل هذه الآية بصفحتين، وقال: أن هؤلاء أناس ذهبوا ليفتنوا المؤمنين ولما سُئلوا: {ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين}؛ فقال هذا هو المقصود بالسيئات، فانظر كيف استحضر هذا المعنى، على الرغم أنه قبل لفظ "السيئات" بعدة آيات، وقال أن هذا هو المناسب للسياق.

ولا يمنع تخصيص المعنى أنه يصلح للعموم أيضًا، فالآية تفيد المعنيين، ودائمًا يقول ابن عطية أن أصل نزول الآية يفيد معنى كذا، لكن الآية تصلح أن تكون آية عامة. وهناك بحث كامل اسمه "الألفاظ المجملة في القرآن وطرق تعامل الطبري معها.

لنعد الآن إلى الآية: {أم حسب الذين يعملون السيئات} هل المقصد الأساسي الذي نزلت به السورة أن المقصود هنا السيئات بجميعها، أم أن المقصد هنا أنها سيئات معينة ومن الممكن أن نسقطها على السيئات كلها؟

لكن قالوا أن المقصد الأساسي: فتنة المؤمنين أو تعذيب المؤمنين؛ أي: أم حسب الذين يعذبون أهل الإيمان {أن يسبقونا ساء ما يحكمون}.

علاقة الآية الرابعة بما قبلها

إذًا **لو اخترنا أن السيئات هنا هي تعذيب المؤمنين، فستكون هذه الآية تخاطب الكفار**؛ وهذا ما عليه جمهور المفسرين: أن الآية تخاطب الكفار.

إذًا؛ ما علاقتها بالآية التي قبلها؟

العلاقة: أن أهل الإيمان في ذلك الوقت مستضعفون، ومن الممكن أن يظن الكافر أنه على الحق؛ لأن معه القوة {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا}[سبأ:35]؛ بما أنني أنا الأقوى وأنا أمتلك المال؛ إذًا؛ أنا على الحق {وما نحن بمعذبين}، فربط بين الأمرين، مع أنه ليس هناك علاقة، وهذا يحدث أحيانًا داخليًا لدى البعض.

فسيدنا أيوب عليه السلام، وهو نبي مكث في بلائه ثمانية عشرعامًا، قال أحد أقرب الناس إليه: "لقد أذنب أيوب ذنبًا لم يذنبه أحد من العالمين"[7]؛ فهو لديه ربط داخلي نفسي بين طول البلاء وبين أنه عاصٍ؛ وبالتالي أنا لست مبتلى، فأنا غير عاصٍ.

{ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا }[الفجر:15-17]؛ أي: هذا الفهم خاطئ، وهو نتيجة أنكم ماديون تحبون الأموال والمادة والترف؛ فأصبحت تفسيراتكم بهذا الشكل.{كلا بل لا تكرمون اليتيم} بمعنى أنكم عندما تريدون أن تضيقوا على أحد تمنعون عنه الأموال، لكن معاملة الله ليست كذلك.

7 [عن أنس بن مالك:] إنَّ نبيَّ اللهِ أيُّوبَ لبث به بلاؤُه ثمانيَ عشرةَ سنةً، فرفضه القريبُ والبعيدُ، إلّا رَجلَيْن من إخوانِه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدُهما لصاحبِه ذاتَ يومٍ: تعلمُ واللهِ لقد أذنب أيُّوبُ ذنبًا ما أذنبه أحدٌ من العالمين، فقال له صاحبُه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانيَ عشرةَ سنةً لم يرحَمْه اللهُ فيكشِفَ ما به، فلمّا راحا إلى أيُّوبَ لم يصبرِ الرَّجلُ حتّى ذكر ذلك له، فقال أيُّوبُ: لا أدري ما تقولان غير أنَّ اللهَ تعالى يعلمُ أنِّي كنتُ أمرُّ بالرَّجلَيْن يتنازعان، فيذكران اللهَ فأرجِعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ عنهما كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلّا في حقٍّ، قال: وكان يخرُجُ إلى حاجتِه فإذا قضى حاجتَه أمسكته امرأتُه بيدِه حتّى يبلُغَ، فلمّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها وأُوحي إلى أيُّوبَ أن ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ فاستبطأته، فتلقَّته تنظُرُ وقد أقبل عليها قد أذهب اللهُ ما به من البلاءِ وهو أحسنُ ما كان، فلمّا رأته قالت: أيْ بارك اللهُ فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ هذا المُبتلى، واللهِ على ذلك ما رأيتُ أشبهَ منك إذ كان صحيحًا، فقال: فإنِّي أنا هو: وكان له أندَران أي (بيدران): أندَرُ للقمحِ وأندَرُ للشَّعيرِ، فبعث اللهُ سحابتَيْن، فلمّا كانت إحداهما على أندرِ القمحِ أفرغت فيه الذَّهبَ حتّى فاض، وأفرغت الأخرى في أندرِ الشَّعيرِ الورِقَ حتّى فاض

الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ١٧ • صحيح

{ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ }[الفجر:17-20]، فهذا ما يجعلكم تفكرون بهذا التفكير، لكن معاملة الله مختلفة.

فهذه الآية ترد على الكافر الذي قد يستعلي على أهل الإيمان ويعذبهم ويبقى فترة طويلة، فتقول: إياك أن تعتقد أنك ستفلت من عذاب الله، حتى لو مت على ذلك.

لن يفلت الظالم من الله

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا}، و"يسبقونا": يفوتونا؛ أي: لن يعجزوا الله هربًا، هذا لن يحدث.

مهما طالت فترة الظالم، ومات موتة طبيعية أمام الناس، سيعذب يوم القيامة ويعذب في قبره، فلن يفوت الله أبدًا؛ **فالآية تخاطب المشرك وتطمئن المؤمن بأنه ليس من الضروري أن ترى عذاب المشرك في الدنيا، لكن لا بد أن يكون لديك يقين أنه لن يفلت من عذاب الله، إذا أخذه الله فلن يفلته.**

فالله سبحانه وتعالى لا يعجل بعجلة أحد، أما الإنسان فلأنه ضعيف فهو إن ظُلم وجاءته الفرصة لكي يأخذ حقه على الفور، يقول: سآخذ حقي الآن فلا أدري ماذا سيحدث فيما بعد؛ فالإنسان يخاف من تغيرات الأوضاع.

فمن يعجل في أخذ حقه يكون ذلك نتيجة نقص، لكن الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء؛ يملك الزمان والمكان؛ {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}[التكوير:26]؟! لن تسبقونا، لن يحدث.

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون}

فمهما حدث إلى أين سيذهب؟ والله لا يعجل بعجلة أحد، فأحيانًا أهل الإيمان يستعجلون فيدعون الله أن يعجل العذاب على الظالمين قبل أن يموتوا، فما المانع أن يموتوا؟!، على العكس؛ يؤجل الله لهم العذاب ليزدادوا إثمًا {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا}[آل عمران:178].

أنت تقول هذا؛ لأن كل تفكيرك هو على قدر هذه الحياة الدنيا؛ وهذا إشكال في طريقة التفكير، فلو أحضرنا –مثلًا– خطًّا طوله ألف كيلو متر، وهناك شخص كل تفكيره في أول مترين، فسيظل يفكر ويخطط في هذه المنطقة فحسب، وأي خلل في هذه المنطقة سيصيبه بإحباط ويأس، لكنه لو أمعن النظر، فسيعرف أن هذه المنطقة لا تعد شيئًا، ولا إشكال أن تُترك أصلًا، فهناك خلود في الآخرة؛ لذلك الربط دائمًا بالآخرة، فيقول الله: {من كان يرجو لقاء الله}[العنكبوت:5].

فالمؤمن المستضعف قد يعجل ويدعو بأن تنزل صاعقة على الظالمين، فمثلًا من الممكن أن يشاهد فيديو لشخص ملحد وينتظر أن تنزل صاعقة تأخذه في آخر الفيديو –وهذا من الحمية الطيبة التي تحتاج فهمًا لسنن الله–، لكن الله يقول: {إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا} فهل تعتقد أنه سيفلت من عذاب الله؟!

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا}، فهذه الآية تصلح للعموم، والمعنى الأساسي هنا الذين يعذبون المؤمنين، {أن يسبقونا} هذا لن يحدث.

{ساء ما يحكمون}؛ أي: من يفكر بهذا التفكير، فهو تفكير سيء وحكم سيء، ويتهم الله سبحانه وتعالى في حكمته، ومن الممكن أن يفكر أهل الكفر بهذا؛ لأنهم كفار، لكن كيف يفكر أهل الإيمان بهذا التفكير؟!

فلا بد أن يوقن أهل الإيمان أن هؤلاء لن يفلتوا من عذاب الله حتى لو مات وهو مستضعف، كما فعل حرام بن ملحان حيث قال حين طُعن: "فزت ورب الكعبة"[8] فلا بد أن يكون لديك هذا اليقين.

فهذه السور آل "الم" المكية، تصنع المجاهدة والصبر واليقين والحكمة والعبادة؛ وهذه المعاني لا بد أن تستحضرها دائمًا في وقت الاستضعاف.

8 [عن أنس بن مالك:] بَعَثَ النبيُّ ﷺ أَقْوامًا مِن بَنِي سُلَيْمٍ إلى بَنِي عامِرٍ في سَبْعِينَ، فَلَمّا قَدِمُوا قالَ لهمْ خالِي: أتَقَدَّمُكُمْ فإنْ أمَّنُونِي حتّى أُبَلِّغَهُمْ عن رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وإلّا كُنْتُمْ مِنِّي قَرِيبًا، فَتَقَدَّمَ فأمَّنُوهُ، فَبيْنَما يُحَدِّثُهُمْ عَنِ النبيِّ ﷺ إذْ أوْمَئُوا إلى رَجُلٍ منهمْ فَطَعَنَهُ، فأنْفَذَهُ، فَقالَ: اللَّهُ أكْبَرُ، فُزْتُ ورَبِّ الكَعْبَةِ، ثُمَّ مالُوا على بَقِيَّةِ أصْحابِهِ، فَقَتَلُوهُمْ إلّا رَجُلًا أعْرَجَ صَعِدَ الجَبَلَ، قالَ هَمّامٌ: فأُراهُ آخَرَ معهُ، فأخْبَرَ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ النبيَّ ﷺ، أنَّهُمْ قدْ لَقُوا رَبَّهُمْ، فَرَضِيَ عنْهُمْ، وأرْضاهُمْ، فَكُنّا نَقْرَأُ: أنْ بَلِّغُوا قَوْمَنا أنْ قدْ لَقِينا رَبَّنا فَرَضِيَ عَنّا، وأرْضانا ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ، فَدَعا عليهم أرْبَعِينَ صَباحًا على رِعْلٍ وذَكْوانَ وبَنِي لَحْيانَ وبَنِي عُصَيَّةَ الَّذِينَ عَصَوُا اللَّهَ ورَسولَه ﷺ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٨٠١ • [صحيح]

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون}

لن يفلت من ترك الإيمان هربًا من الفتنة من الله

واختار الإمام الزمخشري -واتفق معه الإمام الطيبي في الحاشية على الكشاف- في تفسير هذه الآية: أن هذه الآية تخاطب المؤمنين {أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا}.

وابن كثير قال جملة جميلة جدًا، لكني سأقولها بأسلوبي ثم أذكر قوله: من الممكن أن يسمع أحدهم {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}، فيقول أنه إذا كان من يقول آمنا هو الذي سيفتن؛ فأنا لن أقول آمنت حتى لا أفتن، وأدخل في فرن الابتلاءات، فسأخرج وأفعل السيئات كما أشاء.

فهل تعتقد أن الذي قال آمنا سيبتلى، والآخر سيفلت؟! حتى لو لم تره ظاهريًّا مبتلى، هل تعتقد أنه سيفلت من عذاب الله؟ {ساء ما يحكمون}؛ فهذا تفكير خاطئ؛ إذ لا بد من أن تبتلى، فالأفضل لك أن تبقى على الإيمان.

{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}[البلد:11] هي عقبة ولابد أن تقتحمها، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[البلد:10] فقد سمى ربنا الطريقين نجدين؛ أي: أن الاثنين مرتفعين وصعبين، (كل الناس يغدو)[9] في كل الأحوال ستتعب، {إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ}[آل عمران:104]، فهناك نصوص كثيرة تقول بأن كل الناس لا بد أن يتعبوا {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}[البلد:4] طبعت هذه الدنيا على البلاءات؛ فلا يوجد أحد مستريح، لكن كونك ترجو من الله ما لا يرجون، فهذا يهون عليك ذلك.

لذلك قال ابن كثير: " يظن بعض الناس أنه إن ترك وتخلص من الإيمان أنه يفلت من الفتنة، فقد ذهب إلى ما هو أطم"، وابتلاءات الإيمان أصلًا أتت لترفعك وتُنقّيك، وستأتينا في {ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه}.

9 [عن أبي مالك الأشعري:] الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها. مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

{أم حسب الذين يعملون السيئات}، وقد ذكرنا الخلاف فيها، وأن من يخصص اللفظ المجمل هنا يقول أن السيئات المقصود بها: التعذيب، و{أن يسبقونا}؛ أي: يفوتونا ويعجزونا {ساء ما يحكمون}.

مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

الحياة من أجل الله تصبر على البلاءات

لا بد أن يكون لديك رؤية واضحة وهدف واضح؛ كي تصبر على البلاء مثلما ذكرنا في درس سورة هود، ما الذي تنتظره وترجوه؟

{من كان يرجو لقاء الله}؛

- "يرجو" هنا –وهذا رأي جمهور المفسرين– بمعنى: يُأمِّل،
- وهناك قلة قالوا –أبو عبيدة هو من اختاره وعارضه الكثير–: "يرجو" بمعنى يخاف؛ أي أنه لن يكمل الطريق إلا من كان خائفًا، لكن هذا الرأي ضعفه الكثير من أهل العلم.

"يرجو" أي: الذي ينتظر ويأمل {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت}؛ فهذه آية تهون عليك السير؛ فبينك وبين لقاء الله جسر الموت، فتحب لقاء الله، فيحب الله لقائك[10].

وكما ذكرنا سابقًا عن logo therapy في مسألة البحث عن المعنى، وكيف تحاول إحدى المدارس النفسية الغربية حتى تساعد الإنسان على الخروج من أزماته أن تجعله يبحث عن أي معنى لكي يحيا من أجله، **فأنت تحيا من أجل لقاء الله**؛ وهذا هو المعنى الذي يصبرنا على البلاءات، ويجعلنا نتحمل في سبيله كل شيء، فأن أكون منتظرًا هذه اللحظة –رؤية وجه الله سبحانه وتعالى–؛ هذا يهون عليّ كل شيء، ويجعلني أصبر على الابتلاءات.

10 [عن عائشة أم المؤمنين:] مَن أَحَبَّ لِقاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقاءَهُ، وَمَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ، كَرِهَ اللَّهُ لِقاءَهُ، والْمَوْتُ قَبْلَ لِقاءِ اللَّهِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٨٤ • [صحيح] • أخرجه البخاري معلقاً بعد حديث (٦٥٠٧)، وأخرجه موصولا مسلم (٢٦٨٤)

فهذه الآية كما أنها تستفيق الناس وتدفع الخواطر وتبين سنن الله؛ فهي أيضًا تحتوي على بلسم {من كان يرجو لقاء الله}؛ هذا تأكيد وتشويق؛ فاطمئنوا، فمهما فعل أهل الباطل، فلن يمنعوكم عن رؤية وجه الله إذا ثبتم على الإيمان {وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا}[النساء:141].

وقيل –ولكن هذا القول بعيد قليلًا–: أي على قلوبهم، فلن يستطيعوا أن يسيطروا على قلبك، فأنت منتظر لهذه اللحظة، وهو مهما أوتي فلن يستطيع منع هذه اللحظة التي تنتظرها، وتصبر من أجلها.

قالوا: {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}[طه:72] أقصى ما تقضي فيه هو المترين، {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ} الذي نعمل من أجله {خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}[طه:73]؛ فهذا هو الذي سيبقى، فأجسادنا تفنى وتزول، والفكرة أنه هناك في الدار الآخرة {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا}[طه:74].

لقاء الله

فمن المهم جدًّا مسألة الرؤية، وهذه خطورة من يعبد الله وينتظر شيئًا معينًّا يحدث في الدنيا، وإذا لم يحدث هذا الشيء يرتد؛ لذلك قال كثير من المفسرين وغالب السلف في هذه الآية: {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت} أن "أجل الله لآت"

- أي: البعث،
- وقيل: لقاء الله،
- وقيل: رؤية وجه الله،
- أو الحساب؛ وكلها معانٍ أخروية.
- ومن المتأخرين الإمام القاسمي الذي توفي سنة 1332، ذكر معنى آخر وهو أول من ذكر هذا المعنى؛ لأن الواقع المليء بالاستضعاف دائمًا يشجع الإنسان على أن يستخرج معانٍ، قال: {فإن أجل الله} أي: إن نصر الله لآت.

{من كان يرجو لقاء الله}؛ أي: من كان يعمل للآخرة، فأنا أبشره بأن نصر الله قريب؛ فهذا يبشر بالنصر، لكن ليس معنى أنه يبشرك بالنصر، أنك ستراه، فدائمًا هناك قاعدة: **أن القرآن يأتي في أوقات الاستضعاف؛ ليطمئنك على الدين، وليس على نفسك.**

فأنت ستموت، ولكن لو كنت تعمل للدين فأنت ستموت وأنت مطمئن؛ أن هذا الدين باقٍ، لأن هذه هي قضيتك، كمثل أب –مثلًا– يموت، ويقول: أنا سأموت وأنا مرتاح ومطمئن؛ لأنه يشعر أنه أدى الدور الذي عليه.

لذلك أي آية عندما سمعها النبي شعر أنها نعيه؟ {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}[النصر:2]؛ فالوظيفة نجحت وأدى المطلوب منه، حسب الهدف الذي تحيا من أجله وتصبر عليه، فمن الممكن أن تموت وأنت مطمئن على دين الله سبحانه وتعالى، ومطمئن على آخرتك أنك مت على الطريق فتقول "فزت ورب الكعبة".

وعندما قال الإمام القاسمي أن هذا المعنى هو النصر، قال: "ولم أرَ من سبق إليه"؛ بمعنى أن هذا الرأي لم يقل به أحد، بل كان اجتهادًا منه.

لكنني فوجئت بأن من أتى بعده، وهو الإمام ابن عاشور الذي توفي عام 1393؛ أي: بعد الإمام القاسمي –من المهم أن نذكر عام الوفاة للعالم؛ لنعلم في أي قرن عاش، وهل هو من المتأخرين أو المتقدمين؛ ليتضح المعنى أكثر– قال مثل ما قاله الإمام القاسمي، لكنه ساقه بمعنى مختلف قليلًا –فمن الواضح أنه لم يطلع على كلام الإمام القاسمي–، فقال: يجوز أن يكون لقاء الله هو البعث، أو لقاء الله هو الانتصار.

ورجح أن يكون المقصود به يوم بدر، أو فتح مكة، وأن غالب القرآن المكي عندما يتحدث عن بشريات التمكين، فإنه يشير إلى النصر كما في قول الله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}[القمر:45] فتعجب سيدنا عمر، وقال أي جمع يهزم؟ وكانوا في مكة فسورة القمر مكية ، فلما رآهم يركضون في بدر، قال: هذا تأويل الآية[11].

فابن عاشور قال: "فإن أجل الله لآت" معناها النصر.

11 [عن قتادة بن دعامة:] إنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قال: لمّا نزلَتْ: سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدُّبرَ الآيَةَ، فجعلْتُ أقُولُ: أيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ؟ فلمّا كان يومُ بدرٍ ورأيْتُ النبيَّ ﷺ يَثِبُ في الدِّرْعِ ويقولُ: سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدُّبرَ فَعَرَفْتُ أنَّهُ هُوَ
ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، المطالب العالية ١٦٥/٤ • منقطع

والمعاني كلها قريبة؛ وهي أشياء تصبر الإنسان {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت}؛ فالذي تعمل من أجله آتٍ، وإن كنت تعمل لأجل أشياء أخرى، فراجع نفسك! أنت بحاجة إلى أن تحدد وجهتك.

فعندما يحدث لديك خلل واضطراب –وهو من معاني الفتنة–، عليك أن تسأل نفسك لماذا حدث عندي اضطراب؟ ولماذا تركت الطريق؟ فإن كنت تعمل من أجل الجنة أو خوفًا من النار، فما زالت الجنة موجودة والنار لم تنطفئ، فلماذا لم تكمل الطريق؟ ما الذي حدث؟

البعض يترك الطريق، ويقول: الرموز سقطت، ولا يوجد من يكمل الطريق...، فما الذي جعلك أنت لا تكمل الطريق؟ أليس لديك هدف أخروي وهو ما زال موجودًا –وهو الآخرة–؟

{والله خير وأبقى}؛ فلماذا تتوقف؟! لا بد أن تمضي في طريقك.

الله معك في الابتلاءات

{وهو السميع العليم} ففي هذه الأوقات، الله سبحانه وتعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة، هو السميع لأقوالك، العليم بأحوالك {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}[الأنبياء:51]؛ فالله عليم بما يحدث لك، وما تمر به من مشاكل وهموم، وإياك أن تتوقع أن الله تخلى عنك.

ومن المشاهد الجميلة جدًا التي أحبها في سورة الأنبياء قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}؛ فالله لم يتخلَّ عن إبراهيم عليه السلام؛ وعندما تقرأ بعدها تجد أن كل الآيات التي تذكر الكلام الذي دار بين سيدنا إبراهيم وبين قومه، فيها: "قالوا"، و"قال إبراهيم"، و"قالوا"، و"قال إبراهيم"؛ وهو حوار طويل وشديد، ومن الممكن لأحد ضعاف الإيمان أن يسأل –أثناء متابعته للحوار– أين هو ربنا؟!، فتجد أنه عندما {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ}[الأنبياء:68]، قال الله: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ }[الأنبياء:69].

أحيانًا أنت تمر بابتلاءات، لكن الله سبحانه وتعالى معك مهما حدث، ولا بد أن تكون واثقًا من هذه القضية؛ فأنت إن كنت مؤمنًا مسلمًا متمسكًا بالوحي، أنت على الحق؛ تموت في نصرة الحق، ولا يشترط أن ترى النصر بعينيك؛ فأنت مطمئن أن العاقبة للمتقين، ومطمئن على آخرتك بإذن الله سبحانه وتعالى؛ فهذا هو الذي يشغل بالك وهذا الذي يجعلك تكمل السير: أنك تنتظر المعنى الأخروي، {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت}.

ثم يطمئنك الله بأن كل ما يحدث ليس بعيدًا عنه {وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ}[الأعراف:7]، {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}[الأنبياء:51] كثير في القرآن

{وهو السميع العليم}؛ **السميع لمخططات أهل الباطل، السميع لتأوهاتك ولآلامك، عليم بما في صدرك**، وهو السميع العليم سبحانه وتعالى.

نكتفي بهذا القدر، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب أليك، وجزاكم الله خيرًا.

خيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.